التصوف في المشرق الإسلامي
(عوامل ظهوره وأدواره خلال ق6-7هـ)

عبد النبيل براني
جامعة 20 أوت سكيكدة
berrani.b@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/12/12؛ تاريخ القبول: 2023/01/13

Sufism in the Islamic orient
(Factors its emergence and its roles during the 6-7 th) centuries AH

Abdenabil berrani

Abstract :

The Islamic world during 3rd and 4th century AH it devoloped and became ways (Schools) led by shouyoukh (scholars) and followers.These ways (Tourouk) opeard since the 2nd half of the 3rd century AH, during the 6th and 7th century AH the movement of sufi touruk was very active in all over the islamic worlds east and west.

Howers some studies believe that muslim in the of islamic world hanged sufism only after theire successive defeat of Mangolians.

Whereas, in fact, the history of sufisme and Zawayas opeard in east and apread before the date mentionned before and the founders did much efforts during the 2nd half of 6th century AH, facing the mongolian invasion, and constributing in the spread of islam.

Keywords : Islamic east; Sufism; Touruk; Mangol; Islam.

الملخص :

إنتشرالفكر الصوفي في العالم الإسلامي خلال القرن الثالث والرابع الهجريين يدعو إلى الزهد، ثم تطور فيما بعد وأصبح طرقا يقودها شيوخ لهم مريدون، وبدأت هذه الطرق في الظهور منذ النصف الثاني من القرن الثالث، وفي القرنين السادس والسابع نشطت حركة الطرق

بشكل واضح في المشرق الإسلامي، إلا أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن المسلمين في المشرق لجأوا إلى التصوف بعد إنهزاماتهم المتتالية أمام المغول، لكن تاريخ الصوفية والزوايا يدل على أن الطرق الصوفية بدأت في الظهور والإنتشارفي المشرق الإسلامي قبل هذا التاريخ، وأن بعض مؤسسيها خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري لعبوا دورا في التصدي للغزو المغولي ثم ساهموا في نشر الدين الإسلامي بين المغول.

الكلمات المفتاحية : المشرق الإسلامي؛ التصوف؛ الطرق؛ المغول؛ الإسلام.

مقدمة :

إنتشر الفكر الصوفي في العالم الإسلامي يدعو إلى الزهد وترك الملذات والتوجه إلى الخالق، هذا الفكر الذي قاده رجال عرفوا بورعهم وأخلاقهم وإيثارهم الآخرة على الدنيا، ثم تطورت هذه الدعوات فيما بعد وأصبحت طرقا يقودها شيوخ لهم مريدون، ثم نشطت حركة الطرق بشكل واضح في المشرق الإسلامي، وإنخرط الناس في التصوف كشكل من أشكال المقاومة السلبية، أمام الواقع السياسي والإجتماعي والديني المتدهور الذي كان يعيشه المشرق الإسلامي خلال ق 6هـ/12م. وبعد الصدمة التي أحدثها الإجتياح المغولي مطلع ق 7هـ/13م تحول بعض الصوفيه من الإنعزال وترك الدنيا إلى المشاركة والتفاعل مع هذا الحدث.

وتعددت الدراسات والأبحاث حول التصوف وإنصبت حول الشخصيات المشهورة في هذا الميدان، ومع هذا فدراسة أدوار الطرق الصوفية لم تلق الإهتمام الكافي والملائم لدورها التاريخي، ومن الباحثين في هذا الميدان ممدوح الزوبي في كتابه الطرق الصوفية ظروف النشأة وطبيعة الدور، أحصى فيه الطرق الصوفية في المشرق والمغرب وتحدث عنها بإسهاب لكن في الفترة التي تلت ق 7 هـ/14 م، وماري شيمل وهي واحدة من أشهر المستشرقين الألمان على المستوى الدولي في كتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، والذي ركزت فيه وبكثير من الإعجاب والدهشة على

عبد النبيل براني
berrani.b@gmail.com

الجوانب الروحية لدى الشخصيات المشهورة في التصوف في المشرق الإسلامي.

وإشكالية المقال تتمثل في التساؤل التالي: ما هي الظروف التي سادت في المشرق الإسلامي والتي شكلت التربة الخصبة لظهور التصوف ونشأة الطرق الصوفية، وما هي الأزمات التي عاشها المشرق الإسلامي قبل الإجتياح المغولي وأدت إلى إزدهار التصوف، وهل تجاوز المتصوفة الدور السلبي إلى الدور الإيجابي أثناء محنة الإجتياح المغولي؟

وللإجابة على هذا التساؤل يتطرق المقال إلى بداية ظهور التصوف وأنتشاره في المشرق الإسلامي، ثم إلى أزمات المشرق خلال ق6هـ/12م ودورها في ظهور وإنتشار الطرق الصوفية، ويعرض أشهر الطرق الصوفية التي ظهرت في المشرق الإسلامي خلال هذه الفترة، ثم يتطرق لدور بعض الصوفية أثناء الإجتياح المغولي للمشرق الإسلامي، وأخيرا خاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها.

ظهور التصوف وإنتشاره في المشرق الإسلامي :

تعددت الآراء حول عوامل ظهور وإنتشار التصوف وطرقه في المشرق الإسلامي، وإن أجمعت في معظمها على لجوء المسلمين إلى التصوف كهروب من الواقع المتردي والفرار والإنهزام؛ وردة فعل على الصدمة، وصبغ هذا الهروب بصبغة دينية، إلا أنها إختلفت حول تاريخ هذا الظهور والإنتشار، ويمكن تلخيص هذه الآراء فيما يلي:

- إنتشر الفكر الصوفي في العالم الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري يدعو إلى الزهد و ترك الملذات والتوجه إلى الخالق، هذا الفكر قاده رجال عرفوا بورعهم وأخلاقهم وإيثارهم الآخرة على الدنيا، ثم تطورت هذه الدعوات فيما بعد وأصبحت طرقا يقودها شيوخ لهم مريدون. يقول إبن تيمية موضحا تاريخ ظهور الطرق الصوفية: ((إن أول ما ظهرت الصوفية في البصرة، و أول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن يزيد من أصحاب الحسن، و كان في البصرة من المبالغة في الزهد و العبادة و الخوف ونحو ذلك م لم يكن في سائر الأمصار ؛ ولهذا يقال فقه كوفي وعبادة صوفية)) (إبن تيمتية، مجموع الفتاوي 2001، م11: 6، 7).

- ويرجع بعض الباحثين ظهور الطرق الصوفية في بداية صورتها إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين، فيقول: ((بدأت الطرق الصوفية في الظهور في صورتها الأولى في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وأخذوا ينظمون أنفسهم في طوائف وطرق منذ النصف الثاني من القرن الثالث، وتتكون كل طريقة من شيخ وطائفة من المريدين يلتفون حوله، يعلمهم علم الظاهر وعلم الباطن)) (توفيق على وهبة، د. ت: 197).

- ويفسر باحث آخر لجوء المسلمين إلى التصوف في المشرق الإسلامي إلى إنغماس العرب الفاتحين المتغلبين على بلاد الفرس والترك في ملذات الحياة، مما أدى إلى حدوث ردة فعل في نفوس الموالي من الفرس والترك، فإتجهوا إلى الزوايا والخانقاوات والرابطات فرارا من تغلب العرب عليهم، وصبغوا هذا الفرار والإنهزام وردة الفعل بصبغة دينية، ولم يظهر التصوف كمذهب وأسلوب حياة ولم تؤلف فيه الكتب، إلا بداية من القرن الثالث الهجري (إحسان إلهي ظهير، 1986: 44).

- في حين يرى صاحب معجم مصطلحات الصوفية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني هو أول من أسس الطرق الصوفية ونادى بها (عبد المنعم الحفني، 1997، ج.1: 137)، وهذا في القرن الخامس الهجري ببغداد، وهي تدعو إلى التوازن بين التصوف والشريعة فما لم تشهد به الشريعة هو من الزندقة (ممدوح الزوبي، 2001: 11).

- ويرى باحث آخر أن إنتشار التصوف كان في فترة لاحقة، وأن المسلمين في المشرق لجأوا إلى التصوف بعد إنهزاماتهم المتتالية أمام المغول، وما أحدثه الإجتياح المغولي الذي بدأ سنة 616هـ/1219م بعد تدميره لمظاهر الحضارة من صدمة عنيفة على الأمة الإسلامية وأن الطرق الصوفية والزوايا قد بدأت في الظهور منذ هذا الوقت ولجأ المسلمون إليها هروبا من هذه الصدمة، وإتخذوها ملاجئا هربا من واقعهم المتردي، وتحولوا فيها إلى العبادة والزهد في الحياة. (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 84) ؛ (بطروشفسكي، 2001: 334)(أنظر تعليق رقم1)

ويمكن أن نستنتج من هذه الآراء المختلفة أن التصوف في المشرق الإسلامي مر بثلاث مراحل، المرحلة الأولى تبدأ من ظهور الإسلام إلى غاية القرن الثالث الهجري، والمرحلة الثانية تبدأ منذ القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، والمرحلة الثالثة تبدأ من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري أين وصل التصوف إلى غاية الإنتشار والإزدهار.

أزمات المشرق في القرن السادس الهجري :

إنه لمن الضروري التوقف عند الرأي القائل إن المغول دمروا مظاهر الحضارة في المشرق الإسلامي محدثين صدمة عنيفة دفعت الناس إلى الزهد والتصوف، وهذا الرأي أجمع عليه معظم المؤرخين حتى أصبح حقيقة تاريخية لا شك فيها. لكن المشرق الإسلامي كان قد تعرض خلال القرن السادس الهجري لأزمات عنيفة كان لها أثر كبير على جميع مناحي الحياة، وخاصة على الناحية الروحية، وتتمثل هذه الأزمات في:

أزمة سنة 536هـ/1141م : تمثلت بداية هذه الأزمة في الهزيمة التي تعرض لها السلاجقة في معركة قطوان بالقرب من سمرقند على يد القرخطاي، وهم من القبائل الوثنية من أصل مغولي، و قتل في هذه المعركة عدد كبير من العلماء و الفقهاء على رأسهم صدر الإسلام عمر بن عبد العزيز بن مازة علامة ذلك العصر(إبن ناصر الحسيني،1985: 185)، ونتج عن هزيمة السلاجقة فقدانهم نهائيا السيطرة التي كانت لهم على بلاد ما وراء النهر، وأصبحت خراسان تحت التهديد المباشر لهؤلاء القرخطاي، فإستغل الخوارزميون فرصة إنهزام السلاجقة وتقلص نفوذهم على بلاد المشرق و هاجموا خراسان وإحتلوا مدنها وقطعوا الخطبة للسلطان السلجوقي، ثم دمروا هذه المدن وقتلوا سكانها بعدما سلبوهم ونهبوهم(إبن الأثير 2003: 223، 224). وفي نفس السنة أي 536 هـ/1141م إندلع صراع مذهبي بين الشافعية والأحناف أدى إلى نكبة العديد من فقهاء الشافعية، بتحريض من السلاجقة الذين كانوا يعتنقون المذهب الحنفي، وإمتد إضطهاد السلاجقة للشافعية ليصل الأمر إلى تدمير مدرستهم المشهورة

المدرسة النظامية(أنظر تعليق رقم 2)التي دمرها العامة وأحرقوا مكتبتها (صبري عبد اللطيف سليم، 1996: 85).

أزمة سنة 548هـ/1153م : كان من نتائج معركة قطوان السابقة الذكر التي إنهزم فيها السلاجقة أمام القرخطاي الوثنيين سنة 536هـ/1141م نزوح قبائل الغز التركية وكانوا مسلمين نحو إيران ولم ينجح السلاجقة في صدهم ومنعهم من التوغل داخل البلاد فسقطت المدن الواحدة تلو الأخرى في أيدي الغز، بما فيها مدينة مروعاصمة السلاجقة، وإرتكب الغز في هذه المدن القتل والترهيب فكان من ضحاياهم السلطان السلجوقي وحاشيته، ولم ينج منهم عامة الناس فقتلوا الرجال والأطفال، وتم سبي النساء وإسترقاقهن(إبن الأثير، 2003: 384)، كما لم تنج منهم المنشآت العمرانية فخربوا المساجد والمدارس وأحرقوا المكتبات. ولما توقف تخريب الغز للمدن وغاب النظام إنتشرت السرقة والسطو، فأكمل قطاع الطرق واللصوص تدمير ما خلفته حملات الغز (صبري عبد اللطيف سليم 1996: 85).

أزمة سنة 594هـ/1197م : بعد إشتداد الصراع و التنافس على الحكم بين أفراد البيت السلجوقي ضعفت الدولة فإستغلت الخلافة العباسية الفرصة للتخلص من هذه الدولة، فتحالف الخليفة العباسي الناصر لدين الله (571-622هـ/1175-1235م) مع سلطان خوارزم وحرضه على القضاء على السلاجقة، وأسفرت المواجهات على هزيمة السلاجقة (إبن العبري،1986: 288)، فإستغل الخوارزميون الوضع وقرروا ملأ الفراغ الذي نتج عن إنهيار الدولة السلجوقية وتوسيع ممتلكاتهم نحو الغرب، فإرتكبوا المذابح في المدن وفاقت مذابح الغز ولم تنج منهم المساجد والمدارس فصادروا ممتلكاتها، ثم أشعلوا نار فتنة مذهبية حيث حرض الشيعة الخوارزميين على أهل السنة في خراسان، فتعرضت المنطقة ذات الغالبية السنية للسلب والنهب والتخريب، ثم توجه الخوارزميون إلى شمال إيران فخربوا المدن وقتلوا السكان وأغلقوا المساجد والمدارس وصادروا ممتلكاتها (صبري عبد اللطيف سليم،1996: 87).

وهكذا نخلص إلى أن الحياة العامة في المشرق قد شهدت أحداثا غاية في الخطورة، وفي مطلع ق7هـ/13م بدأ الإجتياح المغولي فسقطت

دولة الخوارزميين، وسبب هذا الإجتياح صدمة على بلاد المشرق الإسلامي، ومع ذلك فهو لم يكن حدثا جديدا وفريدا من نوعه، وأن أعمال التخريب والقتل التي إرتكبها المغول الوثنيون لم تكن أكثر حدة وفضاعة من أعمال الغزو الخوارزميين المسلمين، وإنما سجل التاريخ وتوقف عند أعمال المغول الفضيعة لأن مرتكبيها كانوا وثنيين تعرضوا لمقدسات المسلمين وحرماتهم (باتولد فلاديميروفتش 1981: 112)، وأن الصدمات العنيفة التي أدت إلى لجوء المسلمين إلى التصوف قد حدثت قبل الإجتياح المغولي، والواقع التاريخي لإنتشار الطرق الصوفية في المشرق الإسلامي كان قد بدأ قبل هذا التاريخ.

أشهر الطرق الصوفية في المشرق خلال ق 6هـ :

نشطت حركة الطرق في العالم الإسلامي بشكل واضح في كل من المشرق والمغرب، ثم أخذت كلمة الطريقة تأخذ معاني جديدة مع متأخري الصوفية، فهي مجموعة من أفراد الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين، وهي عندهم تطلق على نظام دقيق من السلوك الروحي ويحيون حياة جماعية في الزوايا والربط والخانقاوات، أو يجتمعون إجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر بإنتظام، وهذا ما إنتهت إليه الطريقة منذ القرن السادس الهجري والقرون التالية له (توفيق علي وهبة: 1428-1429 هـ:202). والباحث في هذه المسألة يجد عددا كبيرا من هذه الطرق إنتشرت في المشرق الإسلامي.

يرتبط الصوفية دائما بالزاوية، وهي في الأصل ركن في المسجد كان يخصص للإعتكاف على العبادة، ثم تطورت وأصبحت مكانا ملحقا أو تابعا للمسجد خاصا بالفقراء والمتصوفة الذين لا مأوى لهم يلجِؤون إليه، ثم تطورت الزاوية وأصبحت بناية منفصلة عن المسجد على شكل دار أو مسجد صغير يطلق عليه (خانقاه) تقام فيه الصلاة وتلقى فيه الدروس، ويعقد فيه الصوفية حلقات الذكر (صبري عبد اللطيف سليم، 1996: 99). ولا يختلف الرباط عن الزاوية، فهو أيضا يقوم بنفس دور المسجد والزاوية أو المدرسة وفي كثير من الأحيان كان الرباط فندقا يقصده المسافرون والزهاد ويعتمد على الأوقاف في بقائه، ويعتمد الرباط أيضا على نفسه ويوفر الغذاء للمقيمين فيه بفضل

الغلات التي كانوا يزرعونها بأنفسهم (جعفر حسين خصباك، 1968: 236).

أحصى بيطروشوفسكي أربعة عشر طريقة إنتشرت في المشرق (بيطروشوفسكي،2001: 336-341)، أشهرها الطريقة الكبراوية التي كان لها نفوذ كبير في خوارزم، والطريقة السهروردية التي كان لها نفوذ كبير في بغداد، والطريقة الرفاعية التي كان لها نفوذ كبير في البصرة، والطريقة المولوية التي كان لها نفوذ كبير في آسيا الصغرى وأسسها جلال الدين الرومي (604-672هـ/1207-1283م)، بالإضافة إلى طرق أخرى أقل شهرة وإنتشارا كالطريقة الشيستية في شرق إيران وأفغانستان والسند، وطريقة الخوجان التي أسسها يوسف همداني (ت 535هـ/1140م) وإنتشرت في خراسان (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 86 ؛ بيطروشوفسكي،2001: 336) التي كانت مركزا للصوفية في إيران، حيث بلغ عدد زواياها في القرن الخامس الهجري مائتين زاوية (رجب محمد عبد الحليم،1986: 94). وأشهر الطرق الصوفية التي ظهرت في المشرق الإسلامي وتوفي مؤسسوها خلال القرن السادس الهجري وقبل الاجتياح المغولي هي :

الطريقة السهروردية :

مؤسس هذه الطريقة الصوفية هو الشيخ عبد القاهر أبو النجيب السهروردي (ت 572هـ/1167م)(أبو الوفاء الغنيمي التفتزاني، د.ت: 193 ؛ حسن الشافعي، 2007: 153)، وسهرورد بلدة في إقليم غرب إيران ولد و نشأ بها الشيخ أبو النجيب، وتتلمذ على يد أحمد الغزالي الأخ الأصغر للإمام الغزالي، ثم إنتقل إلى بغداد وأقام بها وإنخرط في الحركة الصوفية حتى إشتهر، ثم تولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد وألف كتابه (آداب المريدين) في التربية الصوفية وهو أكثر كتب التصوف إنتشارا في العالم ومترجم إلى عدة لغات وفي سنة 558هـ/1162م سافر الشيخ أبو النجيب إلى الشام لزيارة بيت المقدس، ولما وصل إلى دمشق نزل على أتابكها نور الدين زنكي وإستقبله، مما يدل على أن شهرة الشيخ أبي النجيب قد تعدت بغداد ووصلت إلى الشام وعموم المشرق (آنا ماري شيمل، 2006: 277).

ويعود الفضل في إنتشار الطريقة السهروردية إلى الشيخ شهاب الدين إبي نصر عمويه السروردي (539-631هـ/1145-1234م)، وهو إبن أخ الشيخ أبي النجيب مؤسس الطريقة وتلميذه، وهو مؤلف رسالة (عوارف المعارف) التي لقيت رواجا وشهدت إنتشارا فاق كتاب عمه وشيخه (آداب المريدين)، وترجمت هي أيضا إلى لغات متعددة (آنا ماري شيمل، 2006: 277، 278).

إتبع الشيخ شهاب الدين السياسة، وأهلته شهرته إلى الحضوة عند الخليفة العباسي الناصر ليصبح رئيس الصوفية في بغداد في عهده وكان الناصر يطمح إلى إعادة هيبة الخلافة العباسية وجمع حكام المسلمين وتوحيدهم للتصدي للمغول، ولذلك قبل أبو حفص أن يكون رسول الخليفة العباسي إلى الأمراء الأيوبيين في مصر والشام وإلى الأمراء السلاجقة في آسيا الصغرى، وكان للعلاقة الودية لأبي حفص بالحكام دور كبير في تميز هذه الطريقة من بين الطرق الصوفية الأخرى بالإنغماس في شؤون الحياة المادية التي كان الصوفية يبتعدون عنها، وفي الإصرار على المشاركة في الحياة السياسية في المشرق الإسلامي. ثم تفرغ الشيخ شهاب الدين للتأليف ومن أشهر مؤلفاته في التصوف بالإضافة إلى كتاب (عوارف المعارف) الذي خصصه لعلم التصوف وأحوال المتصوفة، وكتاب (المعاني في التصوف وآداب القوم وأحوالهم) (آنا ماري شيمل،2006: 279).

الطريقة القادرية :

تنتسب هذه الطريقة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (470-562هـ/1077-1166م)، وهو عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن موسى الجون، والجيلاني نسبة إلى جيلان الواقعة بإقليم الري ببلاد فارس، في قرية من قرى هذا الإقليم تدعى (راشت) (القزويني، د.ت: 353)، وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما (حسن الشافعي،2007: 145). وكان الجيلاني لعلمه وشهرته يلقب عند الصوفية بالقطب الأعظم، والإمام العالم الزاهد، شيخ العصر وشيخ المشرق (إبن الحميري، 1980: 505 ؛ القزويني د.ت: 353 ؛ آنا ماري شيمل، 2006: 280). وفي سنة 488هـ/1095م إنتقل عبد القادر الجيلاني إلى بغداد لطلب العلم وبحلول سنة

520هـ/1126م جلس للتعليم والوعظ (محمد العيثي 1993: 47)، وبدأ الجيلاني حياته واعظا حنبليا في بغداد، ثم تولى التدريس وكانت دروسه يحضرها عدد كبير من الناس حتى يزدحم بهم المكان، وكان لمواعظه تأثير كبير عليهم، كما كان يخصص جزء من جهده إلى دعوة غير المسلمين، فأسلم على يديه في العراق العديد من المسيحيين واليهود (عامر النجار، 2005: 76).

كان عصر الجيلاني عصر فتن ونزاعات بين أهل الرئاسة الخلفاء والوزراء السلاجقة، وبين أصحاب الفرق الشيعة والخوارج والحنابلة والشافعية والأشاعرة (عبد القادر الجيلاني، 1997: 26). وخلف عبد القادر الجيلاني عدة مؤلفات منها كتاب (جلاء الخاطر في الباطن والظاهر) وهو تفسير للقرآن، وكتاب (الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل)، وكتاب (فتوح الغيب)، وجملة من الرسائل والأشعار.

وبلغت شهرة الجيلاني أقاصي المشرق والمغرب، حتى أنه تنسب إليه مقولة مشهورة: ((قدمي فوق رقبة كل ولي))، فلما سمع أبو مدين شعيب التلمساني (أنظر التعليق رقم 3) الذي كان يلقب بشيخ المغرب بهذه المقولة أعلن طاعته الفورية للشيخ الجيلاني شيخ المشرق (آنا ماري شيمل، 2006: 280).

ولكون الطريقة القادرية من الطرق الصوفية الأولى، وإحتل مؤسسها مكانة بارزة بين متصوفة عصره ومن جاء بعدهم إنتشرت الطريقة القادرية في العراق وإيران، وكان معظم الصوفية فيهما من أتباع هذه الطريقة، وذلك إلى غاية القرن التاسع الهجري، وبعد قيام الدولة الصفوية في إيران وإمتدادها إلى العراق إندثرت الطريقة القادرية في المشرق.

الطريقة الرفاعية :

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ أحمد الرفاعي، وهو من معاصري الشيخ الجيلاني، وكان إسمه الحسن ونسب إلى جده رفاعة، وكان الرفاعي من أشراف مكة العلويين، عاش في العراق بأم عبيدة من أرض البطائح بالقرب من البصرة، ولذلك ظلت هذه المنطقة من أكبر مراكز الطريقة الرفاعية (بيطروشوفسكي، 2001: 336).

أشتهرت الطريقة الرفاعية بأفعال مريديها، وكان يطلق عليهم إسم الرفاعية والبطائحية والدراويش الرفاعية (أنظر التعليق رقم 4) والدراويش البكائية، ويقال أن سبب تسميتهم الأخيرة هو إرتفاع أصواتهم بالذكر مصحوب بالبكاء (آنا ماري شيمل، 2006: 281) كما أشتهروا بأكل الأفاعي حية، وغرز السيوف وأسنة الرماح في أجسامهم وإخراجها دون أن يبقى أي أثر للجرح، وإخراج أعينهم وإعادتها إلى مكانها سالمة، ودخول النيران الملتهبة والمشي على الجمر (إبن بطوطة، د.ت: 200، 201)، ويبدو أن هذه الأعمال لم تكن معروفة في عهد الشيخ الرفاعي إنما طرأت على الطريقة بعد وفاته (آنا ماري شيمل، 2006: 282).

توفي الشيخ الرفاعي سنة 579هـ/1183م (الغنيمي التفتزاني، د.ت: 238)، وإنتشرت الطريقة الرفاعية بعده على نطاق واسع في العراق وإيران وآسيا الصغرى (بيطروشوفسكي، 2001: 336 ؛ الغنيمي التفتزاني، د.ت: 238).

الطريقة الكبراوية :

نشأت هذه الطريقة أيضا في المشرق الإسلامي، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ نجم الدين أبو الجناب أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الخيوقي الكبرى، وخيوق قرية في خوارزم، ويلقب بالكبرى والطامة الكبرى وشيخ خوارزم (آنا ماري شيمل، 2006: 288) المتوفي سنة 618هـ/1221م. وظهرت الطريقة الكبراوية في أقصى بلاد المشرق في خوارزم (بيطروشوفسكي، 2001: 338)، ثم إنتشرت في باقي جهات المشرق بفضل التلامذة والمريدين الذين بعث بهم الشيخ نجم الدين إلى بلدان متعددة.

ولقد ألف الشيخ الكبرى عدة كتب باللغتين العربية والفارسية فبالعربية منها تفسيرا للقرآن في تسع مجلدات، وكتاب (الأصول العشرة) وكتاب (فوائح الجمال وفواتح الجلال)، وباللغة الفارسية ألف كتاب (سكينة الصالحين)، وكتاب (أدب المريدين)، وكتاب الوصول إلى الله) (الذهبي، د.ت : 73).

تجول نجم الدين الكبرى في مناطق عديدة من المشرق، وفي سنة 580هـ/1185م عاد إلى خوارزم، ولقد عاصر الشيخ نجم الدين

الكبرى بداية الغزو المغولي للمشرق الإسلامي الذي بدأ بخوارزم في سنة 618هـ/1221م. وكانت منطقة إنتشار الطريقة الكبراوية هي بلاد خوارزم، ومن هناك إمتدت إلى كل من الهند وتركيا بفضل تلامذة نجم الدين الكبرى الذين أخرجوا الطريقة من موطنها ونشروها في باقي أرجاء المشرق الإسلامي (آنا ماري شيمل، 2006 : 288؛ سليم صبري، 1996: 102).

كانت هذه هي أهم الطرق الصوفية التي ظهرت قبل الإجتياح المغولي، وكان لها إنتشار واسع في بلاد المشرق، وكان لبعضها دور أثناء هذا الإجتياح وتأثير كبير على المغول.

موقف الصوفية من الإجتياح المغولي :

تعرض العالم الإسلامي للإجتياح المغولي الذي بدأ سنة 616هـ/1219م، وسبب كارثة سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ/1258م، ونتج عن هذا السقوط مقتل مئات الآلاف من المسلمين وتخريب المدن، فلجأ الكثير من المسلمين إلى التصوف كمقاومة سلبية (بيطروشوفسكي، 2001: 334). إلا أن بعض الصوفية إختار المقاومة الإيجابية فحملوا السلاح وتصدوا للمغول ولما أدركوا عدم جدوى هذا التصدي حولوا جهدهم إلى نشر الإسلام بين هؤلاء المغول المسيطرين على بلاد المسلمين (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 84، 85).

أثناء زحف جنكيزخان على خوارزم سمع بالشيخ نجم الدين الكبرى وأعجب به، فأرسل إليه: ((... إني أريد أن أقتل أهل خوارزم وأنتهبها، فينبغي أن شيخ الوقت يخرج من بينهم ويتصل بنا))، فأجابه الشيخ نجم الدين: ((...إني قد عاشرت أهل خوارزم مدة سبعين سنة وبلوت الزمان وذقت حلوه ومره بينهم، والآن عند نزول البلاء إن هربت وخرجت من بينهم يكون هذا بعيدا عن طريق المروءة والشرف)) (سليم صبري، 1996: 103). وفي يوم دخول جيش جنكيزخان خوارزم لبس الشيخ نجم الدين ثياب الصوفية، وحمل الحجارة والرمح، وخرج معه مريدوه وقاتلوا معه المغول حتى قتلوا جميعا مع الشيخ وذلك سنة 618هـ/1221م وعمر الشيخ ثمانون سنة (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 86).

ومن المقاومين للحكم المغولي حركة أبي الكرم الداراني، الذي إدعى التصوف وإلتف حوله الناس في بخارى سنة 637هـ/1239م وأعلنوا الثورة على المغول وقتلوا الحاكم المغولي في بخارى والحامية المغولية فيها، لكن المغول هزموهم بعد ذلك (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 86).

لقد وقف الصوفية مع الحكومات غي المشرق الإسلامي في مواجهة المغول، ولقد قتل بعض الصوفية في هذه المواجهة مثل الشيخ الكبرى وأبي الكرم الداراني المشار إليهما آنفا، لكن بعد إخضاع وإحتلال المغول للمشرق إستسلم الصوفية للأمر الواقع، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، وقرروا الإستفادة من المكانة والإحترام التي يبديها المغول لشيوخ الصوفية، فتطورت العلاقة بين المغول والصوفية ولعل المغول أبدو لشيوخ الصوفية هذا الإحترام لحاجتهم إليهم في تهدئة الناس (إبن تيمية، د.ت، مجموعة الرسائل و المسائل: 169 170)، و لذلك وبعد إقتحام المغول لبغداد ودخول هولاكو إليها شوهد شيخ صوفي يقود فرسه، ويزعم هذا الشيخ أنه مأمور بذلك (إبن كثير، د.ت: 253)، هذا من جانب المغول أما من جانب الصوفية فكانوا بحاجة إلى حفظ سلامتهم و طلب الحماية من الحكام الجدد للمشرق الإسلامي.

كما لعب بعض المتصوفة دورا في إقناع الناس بالإستسلام للمغول وإقناعهم بقبول الأمر الواقع وتخفيف كارثة سقوط بغداد عليهم ونزع كراهية وعداء المغول من قلوبهم، ومثال على ذلك قول أحد الصوفية: ((بلغني ما وقع ببغداد من القتل الذريع فأنكرته بقلبي وقلت يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلا في يده كتاب فأخته فإذا فيه:

دع الإعتراض فما الأمر لك...ولا الحكم في حركات الفلك
لا تسأل الله عن فعله... فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد... دع الإعتراض فما أجهلك)) (براون،1954: 625 ؛ رجب محمد عبد الحليم، 1986: 87).

تأثير الصوفية على المغول :

بعد إحتلال وإخضاع المغول للمشرق الإسلامي ويأس المسلمين من مقاومتهم إستسلم الصوفية للأمر الواقع، وحولوا كل جهدهم إلى العمل على نشر الإسلام بين هؤلاء المغول الوثنيين بصفتهم الحكام الجدد للبلاد. حيث لاحظ المسلمون تسامح المغول مع الأديان الأخرى، وإحترامهم الكبير لشيوخ الصوفية وعدم تعرضهم لهم إلا إذا قاوموا الحكم المغولي. ولقد ذهب الكثير من الباحثين إلى أن إحترام المغول لشيوخ الصوفية كان دافعه سياسي حتى لا يلتف الناس حول شيوخ الصوفية فيدفعونهم إلى الثورة على حكم المغول (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 85)، إلا أن الدارس لأحوال المغول سيلحظ إحترامهم لكهانهم وعرافيهم الذين كانت أحوالهم تشبه أحوال الصوفية في الزهد وترك ملذات الحياة، فإحترموهم كإحترامهم لكهانهم وعرافيهم، وإعتقدوا فيهم القداسة وعلم الغيب والإتصال بالآلهة وأرواح الأموات.
وكان هناك طريقتان صوفيتان لعب شيوخها دورا كبيرا في نشر الإسلام بين المغول هما الطريقة الكبراوية في الشرق والطريقة الرفاعية في الغرب (بيطروشوفسكي، 2001: 338). كان تمركز الطريقة الكبراوية في خوارزم، و أشهر أتباعها كان الشيخ صفي الدين الباخرزي والشيخ نجم الدين الرازي والشيخ جمال الدين الجيلاني والشيخ نجم الدين البغدادي والشيخ بابا كمال الجندي وغيرهم، وكان الشيخ نجم الدين الكبرى قد أرسل عددا من مريديه وأتباعه إلى أنحاء المشرق كدعاة للإسلام، و بعد مقتل الشيخ نجم الدين الكبرى على يد المغول إستقر هؤلاء الدعاة في تلك الأنحاء وتفرغوا للدعوة و الوعظ والإرشاد وتعليم مبادئ الإسلام، ثم تمكن بعضهم من دخول البلاط المغولي، وتقربوا من زعماء المغول وقادتهم وشجعوهم على إعتناق الإسلام، حيث تمكن أحدهم من لقاء بركة خان سلطان مغول القفجاق (أنظر التعليق رقم 5) (الدياربكري د.ت: 380) وشرح له الإسلام و مبادئه فأسلم على يده، ثم حمل بركة خان رجال بلاطه وقادة جنده على إعتناق الإسلام، وأرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم يبايعه (باعامر محمد، 2007: 71).
وفي إيران كان للطرق الصوفية ومشايخها حضور وتأثير كبير على المغول، خصوصا أتباع الطريقة الرفاعية التي كان لرجالها تأثير

كبير على هولاكو رغم أنه كان وثنيا، وهو الذي حاصر بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ثم دخلها ودمرها وقتل الخليفة العباسي. ويشير إلى تأثير الطريقة الرفاعية على هولاكو قصة حمل أحد رجال الطريقة لتكودار إبن هولاكو ثم دخل به النار أمام مرأى هولاكو وخرج منها بتكودار سالما، فسمح هولاكو للرفاعية بملازمة إبنه وأسلم هذا الأمير منذ طفولته وسموه أحمد، وكان أول سلطان مغولي مسلم من سلاطين مغول إيران والعراق (رجب محمد عبد الحليم 1986: 95، 96).

أسلم تكودار منذ طفولته المبكرة على يد الشيخ الرفاعي الذي وكل بتنشئته، وكان هذا الشيخ إبن لمملوك رومي الأصل من مماليك الخليفة العباسي المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وبعد مقتل هذا الأخير على يد هولاكو ضم هذا الشيخ إليه، وعرف منذ هذا الوقت بزهده وتصوفه ولذلك كان مقربا من هولاكو، مما سمح له بالتأثير على تكودار وحمله على الإسلام، ولما وصل تكودار إلى العرش عين الرفاعي شيخا للإسلام في إيران والعراق، ووضع كل أوقاف الدولة تحت تصرفه وبقي الرفاعي يتصرف فيها بحرية مطلقة طيلة عهده، ثم بعثه تكودار سنة 680هـ/1281م رسولا إلى سلطان المماليك المنصور قلاوون يعرض عليه الصلح بينهما بصفتهما سلطانيين مسلمين (الدياربكري، د.ت: 380).

وهكذا لاحظنا أن الصوفية في المشرق إختلفت مواقفهم من الإجتياح المغولي، فمنهم من إختار المقاومة لهذا الإجتياح، ومنهم من إلتزم حياة العزلة والتفرغ للعبادة وآثر السلامة غير مبالي بالأحداث،ومنهم من تحمل أعباء الحفاظ على الدين الإسلامي ونشره بين المغول المسيطرين و الحكام الجدد للمشرق الإسلامي.

خاتمة:

وفي الأخير خلص المقال إلى النتائج التالية :

لم يكن ظهور التصوف وإنتشار طرقه في المشرق الإسلامي مرتبطا بالإجتياح المغولي فقط، ولم يكن هذا الإجتياح وإنهزامات المسلمين المتتالية أمامه وما أحدثه من صدمة على الأمة الإسلامية هو سبب لجوء المسلمين إلى التصوف والتحول إلى العبادة والزهد في الحياة بل سبق وأن تعرض المشرق إلى أزمات عنيفة لا تقل حدة عما أحدثه

الإجتياح المغولي إن لم تكن قد فاقته فضاعة، وأن ما إرتكبه الغز والخوارزميون قبل الإجتياح المغولي كان كافيا لإحداث الصدمات العنيفة، وإلى دفع المسلمين إلى الزهد والتصوف.

كانت أشهر الطرق الصوفية قد تأسست خلال القرن السادس الهجري وقبل الغزو المغولي، وتوزعت زواياها في نواحي كثيرة من المشرق كالطريقة السهروردية التي إنتشرت في عموم المشرق، والطريقتين القادرية والرفاعية اللتان إنتشرتا في العراق وإيران وآسيا الصغرى والطريقة الكبراوية التي إنتشرت في خوارزم في أقصى المشرق.

لم يعش كل الصوفية حياة منعزلة تفرغوا فيها للعبادة غير مبالين بالأحداث وإتخذوا موقفا سلبيا منها، ولجأوا إلى زواياهم طلبا للأمان مستغلين إحترام و تسامح المغول، وقضوا حياتهم في التدريس وتأليف الكتب، بل كانوا مشاركين وفاعلين في هذه الأحداث، فمنهم من شارك في التصدي للمغول أثناء زحفهم على المشرق الإسلامي كالشيخ نجم الدين الكبرى وأتباعه، ومنهم من تحملوا أعباء الحفاظ على الدين الإسلامي ونشره بين المغول، فعلى يد أحد شيوخ الطريقة الكبراوية أسلم أول سلطان مغولي وهو بركة خان سلطان مغول القفجاق،وعلى يد شيخ من شيوخ الطريقة الرفاعية أسلم أول إيلخان مغولي وهو أحمد تكودار.

تعليقات وشروحات :

1- وكذلك هناك من يرى أن نفول نجم الإسلام في الأندلس في هذه الفترة أيضا قد أدى إلى إزدياد حركة الزهد والتصوف في المغرب والأندلس (مختار العبادي، 2005: 375).

2- المدرسة النظامية: المدارس النظامية أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي المتوفي سنة 485هـ/1092م، وهي أشهر المدارس التي كانت موجودة في إيران والعراق قبل الإجتياح المغولي وتأسيس الإيلخانية، وإستمرت بعد ذلك في تأدية دورها وإنتشرت المدارس النظامية في أهم مدن إيران و العراق وكان أشهرها نظامية أصفهان وبغداد ونيسابور وهراة والبصرة (إبن الجوزي، د.ت ج.16:

304 ؛ بدوي عبد المجيد، د.ت: 232 ؛ حسنين عبد المنعم 1959: 190).

3- أبو مدين شعيب: ولد بالأندلس بالقرب من إشبيلية سنة 520هـ/ 1125م، وإنتقل به والده إلى طنجة وسبتة ثم توجه إلى مراكش وفاس. درس على أبي الحسن بن حرزهم وأبي الحسن بن غالب وإستقر به المقام عند جبل زلغ. وخلال حجه إلتقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه الحديث وألبسه خرقة الصوفية، ثم عاد إلى المغرب وإستقر ببجاية، فكثر حوله الأتباع وخاف منه الموحدون وأمروه بالحضور إلى مراكش، فمات في الطريق سنة 594هـ (البختي جمال علال، 2005: 71).

4- درويش: لفظ فارسي بمعنى فقير، وكانت كلمة درويش مرادفة لكلمة صوفي، وكان الدراويش يعيشون دائما في منزل مشترك يسمى خانقاه وهي كلمة فارسية أيضا، وزاوية وتكية وملاذ ورباط، ويرأس الجماعة منهم الشيخ الذي يترأس الخانقاه (أرنولد توماس، 1970: 307).

5- مغول القفجاق: نشأت دولة مغول القفجاق بعد تقسيم جنكيزخان أملاكه على أبنائه وأحفاده، وسميت بلاد القفجاق نسبة إلى شعب القفجاق الذي كان يسكنها وهو من الشعوب التركية. إعتنق حكام القفجاق الإسلام قبل الإيلخانيين وكانوا حلفاء لدولة المماليك في مصر والشام. إستمرت دولة القفجاق تحكم الشمال الشرقي للمشرق الإسلامي منذ العهد المغولي، وكانت حدودها الجنوبية تصل إلى سواحل بخر قزوين وجبال القوقاز وسواحل البحر الأسود الشمالية وهي حدودها مع دولة الإيلخانيين في إيران ودولة السلاجقة في آسيا الصغرى، أما حدودها الشرقية فتصل إلى إعالي نهر إيرتيش والغربية تتجاوز نهر الفولغا الذي تقع عليه عاصمتهم مدينة سراي (رجب محمد عبد الحليم، 1986: 88).

المراجع :

- إبن الأثير عزالدين الجزري (ت 630هـ)، 2003، الكامل في التاريخ، ج.9، بيروت، دار الكتب العلمية.

- إبن بطوطة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت 769 أو 770هـ) د.ت، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت دار النفائس.
- إبن تيمية تقي الدين (ت 728هـ)، 2001: مجموع الفتاوي الرياض، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- إبن تيمية تقي الدين (ت 728هـ)، د.ت، مجموعة الرسائل والمسائل، ج.1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت 626هـ)، 2008،معجم البلدان، ج.3، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- إبن الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله، (ت900هـ)، 1980 الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت مؤسسة ناصر للثقافة.
- الديار بكري حسين بن محمد بن الحسن، (ت 966هـ)، د.ت، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج.2، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع.
- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله، (ت 748هـ)، د.ت، ذيول العبر في خبر من غبر، ج.5، تح: أبو هاجر محمد السعيد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- إبن العبري أبو الفرج جمال الدين (د.ت.و)، 1986، تاريخ الزمان، تر: إسحاق أرملة، بيروت، دار الشروق.
- عبد القادر الجيلاني (ت 562هـ)، 1997، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، تح: صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت، د. د.
- القزويني زكرياء بن محمد بن محمود (ت 682هـ)، د.ت، آثار البلاد وأخبار العباد، ج.13، بيروت، دار صادر.
- أرنولد توماس، 1970، الدعوة إلى الإسلام، ط.3، تر: حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
- آنا ماري شيمل، 2006، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، كولونيا ألمانيا-بغداد، العراق، منشورات الجمل.

- باعامر محمد سالم بكر، 2007، الصراع بين الإسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران، مجلة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15، ص.ص.64-93.
- البختي جمال علال، 2005، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- بدوي عبد المجيد أبو الفتوح، د.ت، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، ط.2، المنصورة، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
- براون إدوارد جرانفيل، 1954، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، تر: إبراهيم الشواربي، القاهرة، د.د.
- توفيق علي وهبة، 1428-1429هـ، الإسلام والتصوف، مجلة البحوث والدراسات الصوفية، المركز العلمي الصوفي بالعشيرة المحمدية، القاهرة، العددان الثالث والرابع، جمادى الآخرة، ص ص. 189-211.
- حسن الشافعي، 2007، فصول في التصوف، القاهرة، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع.
- حسنين عبد المنعم محمد، 1959، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة مكتبة النهضة المصرية.
- خصباك جعفر حسين، 1968، العراق في عهد المغول الإيلخانيين بغداد، مطبعة العاني.
- رجب محمد عبد الحليم، 1986، إنتشار الإسلام بين المغول القاهرة، دار النهضة العربية.
- زملاور، 1980، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تر : زكي محمد حسن وآخرون، بيروت، دار الرائد العربي.
- صبري عبد اللطيف سليم، 1996، الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران 650-

736هـ/1252-1335م، القسم 1، دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- عبد المنعم الحفني، 1997، معجم مصطلحات الصوفية، ط.2 ج.1، بيروت، دار ميسرة.
- فهمي عبد السلام عبد العزيز، 1981، تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، دار المعارف.
- إبن كثير أبو الفدا الدمشقي (ت 774هـ)، د.ت، البداية والنهاية ج.13، ط.7، بيروت، مكتبة المعارف.
- كي ليسترينج، 1985، بلدان الخلافة الشرقية، ط.2، تر: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ممدوح الزوبي، 2001، الطرق الصوفية ظروف النشأة وطبيعة الدور، دمشق، الأهالي للتوزيع.
- مختار العبادي، 2005، في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية مصر، دار المعرفة الجامعية.
- إبن ناصر الحسيني، (ت بعد 622هـ)، 1985، زبدة التواريخ أخبار الملوك والأمراء السلاجقة، تح: محمد نور الدين، بيروت، دار إقرأ.
- أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، 1959، مدخل إلى التصوف الإسلامي ط.3، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- عبد المنعم حسنين، 1959، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

للإحالة على هذا المقال:

- عبد النبيل براني، (2023)، « التصوف في المشرق الإسلامي (عوامل ظهوره وأدواره خلال ق6-7هـ)». **المواقف**، المجلد: 19، العدد: 01، جوان 2023، ص. ص 551-570.